الأهمية التربوية للارتباط بالتّراث الحضاري
- دراسة فكرية تربوية -

أ. عبد الحكيم كرام
المدرسة العليا للأساتذة- قسنطينة-.

الملخـــص :

العودة إلى التراث مهمة تربوية حضارية، إذا تمت في شروط علمية عقلانية، تتجاوز الهوى إلى الاتصال الشعوري بمنجزات الأسلاف، وذلك من أجل ربط حلقات الماضي بالحاضر لأن الوجدان لا يقبل الانفصام.

وحتى يستطيع المربون القيام بذلك، عليهم أن يربطوا الجيل الجديد بتراثه، من خلال انتقاء الحصيلة النوعية الصالحة للبقاء، وفي مقدمة هذه الحصيلة القيم الإنسانية العالية. دون أن يتخلى هذا الجيل عن الأكداس الفكرية والمنجزات العلمية التي يزخر بها عصرنا، وذلك من أجل أن يكسب رهان التحدي الحضاري المرفوع أمامه.

Abstract

Return to the legacy of civilization is an educational task if it refers to reasonable scientific conditions, beyond the emotional passion to connect the achievements of predecessors, to connect the elements of the past with the present, because the conscience can not accept the dichotomy.

And so the educators to do so, they must link the new generation with its heritage, through the selection of specific viable outcome, and the outcome of high human values. Without that prevent this generation of stacks of intellectual and scientific achievements that characterize our times, in order to win a bet cultural challenge presented to him.

مقدمـــــة :

يتميز الفكر التربوي في المجتمعات النامية بالهشاشة، والتفكّك، مما يجعله أقرب إلى الانفعال منه إلى الفعل، بالنسبة لما يدور حوله من أحداث، وما يستجد من مستجدات، فيعجز في كثير من الأحيان، عن أن يقوم بدور فعال في السيطرة على حركة الواقع. هذا على عكس ما يحدث في المجتمع المتقدم، الذي نجد الفكر فيه على درجة عالية من الحيوية والثراء والفعالية، يقوم بدوره في التصحيح والتوجيه [1].

ومن أبرز مظاهر التفكك والهشاشة، التي يعاني منها الفكر التربوي في المجتمعات النامية، اضطرابه في مسألة الحفاظ على الهوية الوطنية والقومية، والتاريخ. وهي مسائل حسّاسة ومترابطة لا تتحمل التراخي، بل إنها تكتسي أهمية في وقتنا الراهن ـــ ربما أكثر من أي وقت مضى ـــ بالنسبة لكثير من بلدان العالم، لا سيما النامية منها، وهذا يعود إلى حداثة عهدها بالاستقرار، وبحثها عن النموذج الإيديولوجي الأمثل[2]، الذي تستمد منه سياستها وخططها التربوية، إذ يصنفها الدارسون هذه البلدان بأنها صاحبة "النمط الايديولوجي الحائر"، المتردد في اختياره بين الإيديولوجيات

---

[1]- سعيد إسماعيل علي: الفكر التربوي العربي الحديث، سلسلة عالم المعرفة، 113، الكويت1987، ص ص 5 ـــ 6 .

[2]- الإيديولوجيا (l'idéologie) هي نسق من الأفكار أو رؤية متكاملة ومنهج وفلسفة تعكس مبادئ المجتمع، وعلاقاته المادية و المعنوية، وهي جملة من الأفكار مبنية على ما أمكن التحقق منه على أساس من الواقع والتجربة، وبهذا فإن الإديولوجيا هي الرؤية الفلسفية التي تتبناها سلطة الدولة لتوجيه الأفراد والجماعات كما تحدد وجهة نظرهم واتخاذ المواقف الفكرية سواء من الثقافات المتداولة فيما بينهم أو لمواجهة الثقافات الواردة باتخاذ الصالح منها وترك غير المناسب. [أنظر سعيد التل وآخرون: المرجع في مبادئ التربية، دار الشرق للنشر والتوزيع، ط 1، بيروت 1993.، ص 62].

المتصارعة[1]، ومن ثم فإنها تكاد لا تقوى على المحافظة على بقاءها الثقافي، بين الدول المتفوقة في جميع النواحي الحضارية، التي ترفع أمام الدول النامية تحديات من نوع ثقافي، قبل أي نوع آخر من التحديات، مستعينة في ذلك بوسائلها المختلفة، وآلياتها المتعددة: الفكرية، والثقافية، والاقتصادية، والإعلامية، شديدة التأثير، في ظل العولمة الثقافية على وجه الخصوص، التي يروّج أصحابها إلى أنها قدر لا يمكن الهروب منه، إذ بزعمهم: " أن العولمة ذات الاتجاه الليبرالي المغرق في التطرف، هي من قبيل الحتميات الاقتصادية والتكنولوجية الشبيهة بالأحداث الطبيعية التي لا يمكن الوقوف في وجهها"[2]. وهذا كما هو واضح تحدّ صارخ، يكاد يجرف الدّول النّامية إلى ساحته، ساحته التي لا ترحم الضعيف، والبقاء فيها للإنسان الأقوى: ثقافيا وفكريا، وتكنولوجيا، وبكلمة مختصرة الأقوى حضاريا.

والسؤال المطروح :

إلى أي مدى يمكن للتربية أن تسهم في بناء شخصية الإنسان الجزائري، والمحافظة على هويته عن طريق ربطه بتراثه الحضاري؟

قبل التوسيع، لابد أن نضع تحديدا أوّليا للمفاهيم الأساسية الواردة في المقدمة السابقة، والمشكلة لبنية السؤال المطروح المنبثق عنها، ثم سنتطرق بالتحليل إلى جملة من العوائق التي تعيق المجتمع الجزائري خاصة والعربي عامة، عن النهوض، كما تقف أمام سبل تحقيق التواصل الإيجابي مع التراث. ثم سنعرض لتجربة اليابان الرائدة في عصرنا

---

[1]- هذا النمط يوجد في الدول النامية، وهو نمط متردد في استخدام أي من الانماط الايديولوجية المتميزة وتبنيها، دون تمكنه من بلورة نمط خاص به وذلك نتيجة مشاكل عديدة يعاني منها تعود إلى تخلفه في التنمية البشرية والاقتصادية ... الخ، المرجع نفسه، ص 156.

[2]- هانس بيترمان، هارالد شومان: فخ العولمة، ترجمة عدنان عباس علي، سلسلة عالم المعرفة، 238، الكويت 1998، ص 10 .

بتمكنها من مسايرة الركب الحضاري باستفادتها من تراثها. ثم سنناقش الرأي القائل بعدم جدوى العودة إلى التراث، باعتباره غير حضاري، ولا يمكنه أن ينسجم مع ما حققته الإنسانية من قفزات في سلم التطور العلمي والصناعي بالدرجة الأولى، مركزين على إحدى مسائل التراث الجوهرية وهي اللغة، وبالتحديد في سياقنا هذا لغتنا العربية. وفي الأخير سنتعرض إلى جملة من مفردات التراث الحضاري التي نرى أنه من واجبنا التنويه بها.

أولاـــ مفهوم الفكر التربوي، دور التربية، مفهوم التراث، مفهوم الحضارة، ومفهوم الهوية:

1- الفكر التربوي:

"الفكر التربوي" مصطلح يشير إلى النشاط الفكري الذي يتخذ من فلسفة ما وسيلة لتنظيم العمل التربوي في كلياته وجزئياته وتحقيق الأهداف التي يسعى إليها (...) وهناك من يقصر التفلسف التربوي على التحليل والتوضيح المنطقي للأفكار وهناك من يقصره على تحليل الواقع الثقافي للمجتمع وتحليل واستنباط أهداف جديدة.

ويتميز التفلسف التربوي بعدة خصائص منها:

أ - محاولة الوصول إلى نوع من العمومية والشمول.

ب - محاولة التمسك بالاتجاه العقلاني.

جـــ - محاولة استقراء الواقع والبعد عن التأملات الذاتية.

د - محاولة الوعي بكل القوى والمؤثرات الفكرية حوله.

هـــ - محاولة الكشف عن المتناقضات بين الفكر والواقع[1].

[1]- لطفي بركات أحمد: المعجم التربوي في الأصول الفكرية والثقافية للتربية، دار الوطن للنشر والطباعة والإعلام، ط1، الرياض 1984. ص ص 56 - 57 .

أما عن المسالك التي ينبغي على المفكر التربوي أن يسلكها، عند قيامه بعملية التفلسف التربوي، فيذهب "عبد الله عبد الدائم" أن على المفكر التربوي أن يفتح حوارا متعدد الجوانب، متسع الأبعاد، فـــيحاور علوم التربية وما تقدمه من معطيات، ويحاور المتعلم، ويكشف عن ميوله وصبواته، ويعمل مشتركا معه من أجل بناء واقع تربوي جديد، وفوق هذا وذاك يحاور المجتمع في شتى مجالاته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ذلك أن "الفلسفة التربوية ينبغي أن تكون بمثابة الملتقى الذي تجتمع عنده جميع المشكلات المتعلقة بالوجود، لتحلل وتناقش وتستخلص منها الاتجاهات المرجوة للتربية. وهذا الحوار الشامل مع الواقع الموجود، الواقع التربوي بأبعاده المختلفة، والواقع الاجتماعي بمعانيه المختلفة (...) هو الذي يدلنا في النهاية، لا على ما هي عليه التربية فحسب، بل على ما ينبغي أن تكون عليه، أي يولد غايات التربية وأهدافها وفلسفتها"[1].

ويناء على ما سبق يمكن القول أن المفكر التربوي يعمل على تجسيد فلسفة تربوية، تكون " هي الخريطة الفكرية التي تحدد لنا، خصائص، ونوع ووجهة ومسار البناء.. بناء الإنسان"[2].

2- دور التربية :

وضع مفكرو التربية أدوارا مختلفة للتربية: معرفية، وسلوكية، وروحية، وأخلاقية؛ واختلفوا في أيٍ من هذه الجوانب له حق الأولوية على باقي الجوانب. لكننا في هذه المداخلة نتبنى الرأي الذي يجعل تربية الشخصية من الزّاوية القيمية الأخلاقية

[1]- عبد الله عبد الدائم: نحو فلسفة تربوية عربية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 2، بيروت 2000. ص 61 .

[2]- سعيد اسماعيل علي: فلسفات تربوية معاصرة، سلسلة عالم المعرفة، 198، الكويت 1995 ص 6.

والثقافية، من أولى أولويات العمل التربوي[1]. حيث يتمثل دور التربية ـــ حسب هذا الرأي ـــ في المحافظة على قيم المجتمع، وتنقيتها، وترقيتها بما يتوافق وروح العصر، دون الوقوع في التجاذبات الإيديولوجية، التي قد تنحرف بالتربية عن مسارها الذي يهدف إلى صنع الإنسان المتوازن، وبالتالي حفظ كيان المجتمع من الذوبان، وذلك عن طريق التنسيق والتعاون بين المدرسة من جهة، وبين المؤسسات التي لها دور كبير في التأثير سلبا أو إيجابا، في تربية وتوجيه النشء من جهة أخرى، بحيث تسير برامج هذه المؤسسات (البيت، دور العبادة، الجمعيات، النوادي، وأجهزة الإعلام) ووسائل تأثيرها في خط متواز مع أهداف التربية المثلى، حتى لا ينشأ الطفل وقد تولدت في نفسه عقد كثيرة، وتكونت عنده الازدواجية، فيصبح نهبا مقسما بين مختلف الاتجاهات والانتماءات، ويغدو ولاؤه مضطربا مزعزعا، وبالتالي تصبح مهمة تربيته مهمة شاقة [2].

3– التراث :

يتجلى التراث في الآثار المكتوبة وغير المكتوبة، كما يراد بكلمة تراث الكتب المخطوطة التي ورثها الخلف عن السلف، فالتراث كما جاء في "معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب" هو " ما خلفه السلف من آثار علمية وفنية وأدبية، مما يعتبر نفيسا بالنسبة لتقاليد العصر الحاضر وروحه. مثال على ذلك: (...) ما تحتويه المتاحف والمكتبات من آثار تعتبر جزء من حضارة الإنسان"[3].

---

[1]– محمد منير مرسي: فلسفة التربية اتجاهاتها ومدارسها، عالم الكتب، (د ط)، القاهرة 1992، ص 80 .

[2]– مجدي عزيز إبراهيم: المنهج التربوي والتحدي، عالم الكتب، ط 2، القاهرة 2002، ص 20 .

[3]– كامل المهندس ومجدي وهبه: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان ط2، بيروت 1984، ص 93.

وحسب هذا التعريف فالتراث يتكوّن من خلال تراكم عادات وتقاليد وتجارب وخبرات وعلوم، شعب من الشعوب، وهو جزءٌ أساسي من قوامه الاجتماعي الحضاري الخلقي، يوثق علائقه بالأجيال السالفة التي عملت على تكوين هذا التراث واغنائه. فالتراث أداة لتثبيت كل إرث ثقافي لم يتطرق الشك إلى أصالته، وبهذا فهو مكوِن من مكونات الحضارة التي ينتمي إليها[1].

4 – الحضارة :

رغم التداخل الموجود بين مصطلحي الثقافة والحضارة، إلا أن مفهوم الحضارة يعد أشمل من مفهوم الثقافة؛ والحضارة (Civilisation) كما تعرفها "الموسوعة السياسية" "مشتقة (من الحضر والمدنية) وهي مجموعة المنجزات الفكرية والأخلاقية والصناعية، التي يحققها مجتمع معين في مسيرته لتحقيق الرقي والتقدم"[2].

ويركز البعض في استخدام مصطلح الحضارة على الناحية الثقافية، بينما يستخدمها البعض الآخر على أساس أنها سيادة العقل في المجتمع. أما استخدامها المعاصر فقد شدّد على ما تضمَنُه من التطور العلمي والتكنولوجي، وما يفرزه هذا التقدم من إنجازات في الميادين الأخرى[3].

ويذهب "مالك بن نبي" أن الحضارة هي عبارة عن "جملة العوامل المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل فرد من أعضائه جميع الضمانات اللازمة

---

[1]– جان فرنسوا دورتيه (إشراف): معجم العلوم الإنسانية، ترجمة جورج كتورة، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط 1، بيروت 2009، ص 215 .

[2]– عبد الوهاب الكيالي (وآخرون): موسوعة السياسة، ج 2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 2، بيروت 1985، ص349.

[3]– المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

لتقدمه"[1]، ويضيف "مالك بن نبي" في تحديد مفهوم الحضارة أنها سياج حصانة للإنسان تحميه من الهمجية[2].

والجدير بالذكر في سياق تعريفه " مالك بن نبي "أن الحضارة هنا" لا توضع في مقابل البداوة، لأن هذا التصور يطمس معالم البداوة التي تمثل إحدى روافد حضارة مجتمعنا العربي الإسلامي، والتي تغنى بمحاسنها تراثنا الأدبي، وهذا يتماشى تماما مع المفهوم الانثروبولوجي للحضارة، الذي يجعلها ليست صفة خاصة بالمجتمعات المتطورة فقط، بل صفة تصدق على كافة المجتمعات الإنسانية، التي يصح القول أنها قد عرفت شكلا من أشكال الحضارة نطلق عليه اسم الثقافة [3].

5– الهوية :

الهوية هي الشفرة التي يمكن للفرد بواسطتها أن يعرف نفسه في علاقته بالجماعة الاجتماعية التي ينتمي إليها، والتي عن طريقها بالمقابل يتعرف عليه الآخرون باعتباره منتميا إلى تلك الجماعة. وهي شفرة تتجمع عناصرها العرقية على مدى تاريخ الجماعة، من خلال تراثها الإبداعي الثقافي، الذي يطبع حياتها في الحاضر، وتسعى إلى الحفاظ عليه في المستقبل، وتتجلى الهوية في اللغة بشقيها اللفظي والرمزي، إضافة إلى العادات .

---

[1]– مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة محمد عبد العظيم علي، دار الفكر، ط1، بيروت 1971، ص 50 .

[2]– المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[3]– راجع جان فرنسوا دورتيه: معجم العلوم الإنسانية، ص ص 350–351 .

وليست الهوية هي كل هذا فقط، بل يمتد مفهوم الهوية ليشمل الملامح البيولوجية والنفسية التي تنتقل بالوراثة داخل الجماعة، وتظل محتفظة بوجودها وحيويتها بينهم، من خلال الأساطير، والقيم، والتراث الثقافي[1].

ومن خلال هذا التعريف يتجلى لنا مدى الارتباط الوجودي بين التراث الثقافي الحضاري وبين الهوية.

ثانيا ــ عوائق الاتصال بالتراث :

لقد شاعت في عصرنا حالة من خشية الالتفات إلى الخلف بعد أن أذيعت بين بعض المفكرين الرّهبة من فكرة "الماضوية" و" العودة المأزومة إلى التراث"، الأمر الذي كرّس لديهم سوء نظرة لصورة التراث، أو بتعبير آخر استعلاء عليه، وهذا برأينا جانب هام من أزمة النهضة التي يعاني منها المجتمع العربي عامة ومجتمعنا الجزائري خاصة، ونقصد هنا فئة من الطبقة المثقفة والمتعلمة، المستلبة ثقافيا من طرف الثقافة الغربية، ابتداء بشريحة هامة من النخبة المثقفة، وانتهاء عند الجيل الصاعد المتعلم على يد هذه النخبة أو المتأثر بها، عن طريق التعليم والتربية، أو بوسائل التثقيف المتعددة. ما سيجعل هذا الجيل الصاعد يأخذ بهذه الصورة غير السليمة والضبابية للتراث، بل وحتى المشوهة، في مستقبل حياته.

وحتى نفهم الصورة الحاضرة التي يبدو عليها تراثنا في عيون كثير من مثقفينا، يحسن بنا في بداية مقالنا هذا أن نستحضر جملة من الأسباب أو العوائق التاريخية والمعرفية التي أدت إلى ما هي عليه هذه الصورة اليوم من الانحراف والتشوُّه .

---

[1]– راجع رشاد عبد الله الشامي: إشكالية اليهودية في إسرائيل، سلسلة عالم المعرفة، 224، الكويت 1997. ص 5 .

1- عوائق زرعها المستشرقون :

عرّف المفكر الجزائري " مالك بن نبي" المستشرقين بأنهم: " الكتاب الغربيون الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية "[1]، وصنفهم إلى صنفين :

أ- من حيث الزمن: طبقتان، قدماء أمثال: " توماس الاكويني"، ومحدثون أمثال: "كارادي فو" و"جولد زيهر" .

ب – من حيث الاتجاه العام: طبقتان، منتقدين أو مشوهين، ومادحين .

فالقدماء من المستشرقين عملوا على تشويه صورة العربي والمسلم والإسلام في العالم الغربي من جهة، كما عملوا، من جهة أخرى، على دراسة شعوب وحضارات الشرق، لمعرفة أسرارها العقائدية والفكرية، فترجموا "القرآن" و"عقيدة ابن تومرت" زعيم حركة الموحدين التي خشيها الغرب في ذلك الوقت .

أما طائفة المستشرقين المادحين، فمنهم فئة كتبت لنصرة الحقيقة العلمية والتاريخ، ومن أجل مجتمعهم الغربي في نفس الوقت، وهنا يلفت "مالك بن نبي" نظرنا إلى أن هذا المدح له أثر مرضي إذ جعل منه بعض المتعلمين في المرحلة الاستعمارية مرهما مسكنا، أو حقنة اعتزاز تدفع عنهم المهانة التي لحقت بهم من جراء اصطدامهم بالثقافة الغربية التي أحدثت شللا في جهاز الحصانة الثقافية، وأصبح المتعلمون ناهيك عن العامة يعانون من مركّب نقص عميق .

ولقد نبه "مالك بن نبي" إلى مساوئ وقع أعمال المستشرقين المادحة للحضارة والتراث الإسلامي، على من يطرب لها، حيث شبه المنتشي بأعمال السلف، بالفقير الذي لا يملك قوت يومه، ويتسلى بالتّحدث عمّا كان يملك أجداده من ثروات طائلة،

[1]- مالك بن نبي: إنتاج المستشرقين، وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، بيروت 1966، ص 5.

فتسليته هذه تبعد عن فكره مؤقتا الشعور بالفقر لكنها لا تجعله غنيا بمجرد ذلك الحديث[1].

2- عوائق نمّـــاها الاستعمار وأحيـــاها :

كان نتيجة أعمال المستشرقين السابقة الذكر من جهة، وما ألحقه الاستعمار من هزائم عسكرية تجذّر مركب النقص في المجتمعات المستعمرة، من جهة أخرى ـــ وبلادنا على وجه التحديد قد عانت ربما أكثر من أي بلاد أخرى من هذين الطرفين ـــ كانت نتيجة ذلك انقسام المفكرين عندنا إلى اتجاهين:

أولهما: يدعو إلى الأخذ بالفنون والعلوم والصناعات الغربية، حتى اللباس، بل اللسان، ونسيان كل ما يقابل هذه المنتجات محليا من تراثنا[2].

وثانيهما: حاول التغلب على مركَّب نقصه بالبحث عن "حقنة اعتزاز للتغلب على المهانة التي أصابته من الثقافة الغربية المنتصرة "[3].

ولعل الاتجاه الأول كان أكثر تأثيرا في الناحية الفكرية والسياسية والاجتماعية، بينما بقي الاتجاه الثاني ـــ ولنسمه بالمحافظ ـــ في عمق المجتمع بشرائحه المتوسطة والفقيرة، والتي عانت أكثر من غيرها الإذلال والاستعباد من طرف المستعمر؛ وإن كان "مالك بن نبي" نفسه لا ينكر ما لهذا الاتجاه الثاني ـــ المعتز بما لدى الأجداد من أمجاد ـــ من أثر تربوي نفسي مسه شخصيا في طفولته[4].

3- عوائق ذاتية (رواسب نفسية) في الإنسان الجزائري :

---

[1]- مالك بن نبي: إنتاج المستشرقين، وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، ص 13.

[2]- المرجع نفسه، ص 10.

[3]- المرجع نفسه، ص 12.

[4]- المرجع نفسه، ص 13.

إن عوامل الأمّية التي كانت نتيجة الحقبة الاستعمارية الطويلة، وما انجر عنها من ردود أفعال عاطفية، وعدم حمل مسألة التراث الحضاري، وعلى رأسها اللغة العربية، محمل الجد، زادت من ابتعاد مجتمعنا عن جذوره الممتدة إلى تراثه الثقافي والحضاري. وهذا يعود كما أرجعه " عبد الله شريط " في كتابه: "من واقع الثقافة الجزائرية"، إلى جملة من العادات السيئة المتفشية في المجتمع الجزائري، والتي تعمل عملا مثبطا للحياة الثقافية، في وسط المثقفين أنفسهم، مما ينعكس مباشرة على المؤسسات التربوية والتوجيهية، ومن هذه العادات السلبية :

ـــ نفسية الاستهلاك، سواء للثقافة الموروثة أو للثقافة الوافدة .

ـــ الجمود والكسل واللاّمبالاة في تناول القضايا المصيرية، وعلى رأسها قضية اللّغة العربية، لغة المجتمع الثقافية، وحاملة تراثه .

ـــ الانهزامية، واحتقار الشعب لنفسه أمام الثقافة الوافدة[1].

فهذه العادات التي تفشت في المجتمع الجزائري، حسب رأي "عبد الله شريط" تعمل عملا مثبطا قويا لتمسك مجتمعنا الجزائري بجذوره الممتدة إلى تراثه الثقافي والحضاري.

ثالثا : التحديث ليس متناقضا مع الحفاظ على الذات والاعتزاز بالتراث:

يمثل أمامنا في هذا المضمار نموذج (التجربة اليابانية)، التي نجحت إلى حدّ بعيد في التوصل إلى حل معادلة "التراث والعصرنة"، ولنقف على أهم المرتكزات في تجربة اليابان التحديثية، التي استندت فيها على إرثها الحضاري العريق، وهي كالتالي:

ـــ اعتبار اليابانيين الأوروبيين الغزاة برابرة، يجب دحرهم والتفوُّق عليهم .

[1]– عبد الله شريط: من واقع الثقافة الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط 2، الجزائر1981، ص 20.

ـــ التمسك بقيم "الكونفوشيوسية" الجديدة، التي يشدد مفكروها على ضرورة تدريس التاريخ، والتربية والأخلاق، كل ذلك من أجل ترسيخ التعاليم الأصلية المبنية على ثقافة المجتمع وتراثه .

ـــ إيلاء المصلحين اليابانيين الحفاظ على الثقافة التراثية، إبان عملية التحديث، الأهمية القصوى في برامجهم الإصلاحية، واعتبارهم أن التحديث الذي يقود إلى التفريط في الثقافة التراثية هو أقصر طريق للتغريب، ولا يقود أبدا إلى الحداثة الحقيقية[1].

ـــ القيادة المتنورة في عهد الأمبراطور "مايجي" الذي امتدت فترة حكمه (1868 ـــ 1912) والذين جاؤوا من بعده، جعلت من الثقافة التقليدية ركائز وطنية صلبة لمواجهة ثقافة التغريب .

فلم يُسمح لمقولات الثقافة الغربية باختراق النسيج المتماسك للمجتمع الياباني، ولم يعتمد نموذجا غربيا واحدا منها بعينه لتطبيقه، وفضل اقتباس ما هو مفيد من النماذج الغربية، وطرح ما يقود للتغريب. ونتيجة ذلك نجحت اليابان في الانتقال من مرحلة نقل التكنولوجا والعلوم (مرحلة الاقتباس)، إلى مرحلة تطويرها، والمشاركة في تصنيعها عالميا (مرحلة الإبداع والتجديد)[2].

وهكذا اتخذت اليابان من الثقافة التراثية ركيزة أساسية لعملية التحديث، انطلاقا من الرأي القائل بأن الثقافة التراثية هي التي تحدد ملامح الشخصية القومية لأي شعب من الشعوب. كما فهم اليابانيون أن التراث بحد ذاته قد يكون حافزا للتقدم كما قد يكون معيقا جديا له، لذا قاموا برسم إستراتيجية شاملة طويلة الأمد يقوم فيها المصلحون بعملية الأخذ

---

[1]- مسعود ضاهر: النهضة العربية والنهضة اليابانية، تشابه المقدمات واختلاف النتائج، سلسلة عالم المعرفة، الكويت 1999، ص 22 .

[2]- المرجع نفسه، ص 292 .

بتطوير الجوانب الإيجابية من التراث.

و لم تسر النهضة اليابانية في طريق معبدة، بل اعترضت سبيلها تحديات كبرى واجهها اليابانيون بتضحيات تكفؤها للحفاظ على أصالة عريقة، تحميها حداثة مفتوحة بشكل مدروس على جميع ثمار التغيير والثقافات العصرية، تتعامل معه بثقة القادر على الاستيعاب والتطوير والإبداع[1]. تضحيات مست جميع طبقات المجتمع، وكمثال على ما نقول مساهمة "طبقة الساموراي"، وهي طبقة عسكرية في الأساس كانت تعيش ـــ لقرون طويلة ـــ بشكل طفيلي على حساب القوى المنتجة، ونظرا لأنها كانت على قدر من المعرفة والعلوم العصرية أفضل من غيرها من الطبقات، تنازلت هذه الطبقة عن امتيازاتها استجابة للإصلاحات التي نادى إليها الأمبراطور المستنير، فلعبت " شريحة السّاموراي" دورا أساسيا في نشر الثقافة اليابانية، وفي تعليم الفقراء من اليابانيين[2].

ولابد أن نشير في نهاية هذا العرض الوجيز للتجربة اليابانية، أن هناك كثير من الباحثين الذين لم يتوقعوا نجاحا لليابان معلّلين آراءهم بأسباب مختلفة منها:

– الطبيعة القاسية لليابان، وفقرها من المعادن.

– حب الكسل والرّضا والقناعة بالقليل عند الإنسان الياباني، وعدم قدرته على إدارة الأعمال على أسس عصرية، نظرا لإغراقه في تقاليده الموروثة على جميع المستويات، فينبغي ألاّ يكون لليابان أي علاقة بالأعمال الصناعية الحديثة، لأنه لا يملك أي ذكاء يمكنه من إدارتها .

– التجربة اليابانية مجرد تقليد لتجارب التحديث الغربية ولن تصمد طويلا[3].

---

[1]– المرجع نفسه، ص 23 .

[2]– المرجع نفسه،، ص 230 .

[3]– المرجع نفسه، ص 16.

وما يمكن أن نستخلصه من هذه التجربة، أن اليابان استطاعت الخروج من منطق الرفض أو القبول إلى الخيار الثالث، المتمثل في الحفاظ على أحسن ما في القديم، والأخذ بأحسن ما في الجديد مع الذكاء والحنكة في تعاملها مع الغرب أي دون التفريط في هويتها الثقافية والحضارية، عن طريق العمل الشاق للحاق بركب الحضارة، لأنها فهمت واعتبرت من دروس التعامل مع الغرب، فتعاملت معه بسلاحه وهو العلم، وأسهمت في دفع عجلة التقدم العلمي والتكنولوجي، التي يقودها الغرب، حتى أصبحت جزءاً منه، رغم الاختلاف الكبير في الثقافة والنظرة إلى التراث.

رابعا : أهمية اللّغة العربية وضرورة تغيير النظرة إليها:

قال الفيلسوف الألماني "فيخته" (1762 – 1814): "اللّغة روح الشعب"[1]، بمعنى أنها حاملة فكره، وحافظة تراثه وصورة شخصيته. ومن الأمثلة التي تبرز شدة اعتزاز الأمة الألمانية بلغتها، ما نشرته جريدة "دي فليت" (Die Welt) الألمانية سنة 1965م، في مقال لها عنوانه: "لا بكالوريا مع علامة ضعيف، أو ضعيفة في اللغة الألمانية"، تعليقا على قصة الفتاة التي رسبت في شهادة البكالوريا رغم حصولها على معدل عام عال، وحين رفعت الفتاة قضيتها إلى المحكمة محتجة، رفضت المحكمة العليا احتجاجها، نظرا لأن الفتاة متحصلة على نقطة ضعيفة في اللغة الألمانية، ولا يشفع لها أنها تدرس في شعبة علمية وليست أدبية[2].

يذكر"مولود قاسم نايت بلقاسم" عن "نيكولاس بوديه" (Nicolas Baudet) أنه قال: "إن معجزة إسرائيل (...) تتجلى في إحياء [الاسرائيليين لـــ] لغة ماتت منذ

---

[1]– مولود قاسم نايت بلقاسم: نعيب الإنسانيات والعيب فينا وما للإنسانيات عيب سوانا، (مقال) بمجلة الثقافة، العدد 95، أكتوبر 1986، الجزائر، ص 28 .

[2]– مولود قاسم نايت بلقاسم: نعيب الإنسانيات والعيب فينا وما للإنسانيات عيب سوانا، ص ص 31 – 32 .

ألفي سنة، هي اللغة العبرية، التي أصبحوا يدرّسون بها الذرة في معهد وايزمان"، والأكثر من هذا، عندما تعوزهم اصطلاحات علمية، تقنولوجية، يأخذونها من اللغة العربية، يأخذون الجذر من كلمة عربية، نظرا إلى القرب بين اللغتين ونظرا لعراقة اللغة العربية في تقاليدها العلمية، ونظرا لثرائها ومرونتها، وسلاستها، وسهولة الاشتقاق منها. يأخذون من العربية الجذر ويضيفون إليه السوابق واللّواحق (les Les sufixes préfixes et) وينحتون، ويبدعون المصطلحات التقنية لأدق ما تنشئه العلوم والتقنولوجيا اليوم (...)" ونحن نقول أنها عاجزة[1].

ويشير"مولود قاسم نايت بلقاسم" بهذه العبارة الأخيرة إلى من يتجاهلون ثراء اللغة العربية ومرونتها، ويرون أنها مجرد لغة تراثية عتيقة، تصلح لأن توضع في المتاحف، هي والتراث الذي تحمله .

ورغم الحماس الذي يدافع به الكثيرون عن اللغة العربية، إلا أن هناك دراسات هي الأخرى، على درجة من الموضوعية، تذهب إلى أن اللغة العربية رغم ثرائها الكامن، لازالت في حقيقة أمرها تعاني من عجزها عن تسمية المكتشفات العلمية، وهذا يعود لقلة مساهمة الناطقين باللغة العربية في التقدم العلمي، وبعدهم عن المفاهيم الحضارية التي تولدت عنها تلك المكتشفات العلمية.

ذلك أن تسمية الشيء تتطلب إدراكا لخصائصه، وما اجتهاد مجامع اللغة العربية ـــ حسب ما يرى هؤلاء ـــ إلا اجتهادًا من الدرجة الثانية، لأنه اجتهاد لا لتسمية الأشياء بصورة مباشرة، وإنما هو بحث لإيجاد الكلمة العربية المقابلة لنظيرتها الأجنبية، فالمصطلح العربي ينوب عن الكلمة الأجنبية التي بدورها تنوب عن الشيء، فالمصطلح

[1]- المرجع نفسه، ص 27.

العربي يظل مجرد إشارة، ولا يرقى إلى مستوى العلامة. والعلامة اللغوية هي التي تنوب عن الشيء، وتغني عن إحضاره، والتي بها يزول الغموض الذي يشوب لغة الإشارات[1].

وهنا نتساءل، ما دامت اللغة بتلك الأهمية التي حددها " فيخته"، كيف نوطد أواصر الجيل الحاضر بتراث أسلافه وذخيرتهم قليلة؟ كم نسبة طلبة العلوم الإنسانية القادرين على قراءة كتب التراث؟

إن قلة ذخيرة المتعلم من اللّغة الأم أمر خطير للغاية، فكما أنه يؤدي بالمتعلم إلى الجهل بمجريات الحياة وحضارة العصر، فإنه يؤدي به أيضا إلى الجهل بتراثه، فيقوده إلى الانفصال عنه لجهله بقيمته ومكانته، ومن ثم التنكر له، أو الانتقاص من شأنه نظرا لتضاؤل روح الانتماء إليه والاعتزاز به، الأمر الذي يؤول بالمتعلم إلى الشعور بالدّونية، وإلى التنكر إلى مثل أمته وقيمها الحضارية، أو اتهام هذه الأمة بالتخلف والضعف، واتهام لغتها بالقصور والعجز. وقد يقود ذلك إلى التشبث بقيم حضارية غريبة، ولغة أجنبية دخيلة على أنها البديل، فيؤول الأمر بالتالي إلى ضياع الهوية وفقدان أو ضياع الذات[2].

والجيل الحاضر من الطلبة اليوم، يبدو أنه يعاني من هزال، ليس في لغته الأم فقط، بل حتى في اللّغات الأجنبية، فهو يكاد يبتعد ابتعادا كبيرا عن ثقافة عصره، فلا يجد أمامه إلا القشور كي يتشبث بها، ويبدو أن الجيل السابق كان أوفر حظا، من امتلاكه زمام اللّغتين العربية والأجنبية، ثم حدث الانحدار، يقول "زكي نجيب محمود": "ملأ الساحة جيل جديد فقد القدرة اللغوية بشعبتيها العربية والأجنبية فلا هو يستطيع

---

[1]- حنفي بن عيسى: العربية الحديثة والتحدي التقني، (مقال) بمجلة الثقافة، العدد 95، سبتمبر- أكتوبر1986، الجزائر، ص ص 218 – 219 .

[2]- أحمد محمد المعتوق: الحصيلة اللغوية، أهميتها- مصادرها- وسائل تنميتها، سلسلة عالم المعرفة، 212، الكويت 1996، ص 310.

قراءة الأصول العربية في عيونها ولا هو يستطيع أن يكون على صلة بما تنتجه ثقافة الغرب"[1].

ولقد بحث المهتمون بالتربية موضوع تردي استعمال اللغة العربية الفصحى، المنطوقة والمكتوبة، لدى المتعلمين، وأرجعوه إلى أسباب متعددة، منها:

ـــ تزايد عدد المتعلمين في مقابل قلة التجهيزات التعليمية، في كل مراحل التعليم خاصة الابتدائية منها .

ـــ منافسة اللغات الأجنبية للغة العربية، عن طريق تفوق مناهجها ووسائلها التعليمية .

ـــ تعليم العلوم باللّغة الأجنبية، وانعكاسه على حركة التأليف باللغة الأولى، مما يؤدي إلى الاكتفاء أحيانا بالكتب المستوردة من مراجع مدونة باللغات الأجنبية .

ـــ توفّر فرص العمل المغرية لمتقن اللغة الأجنبية لا العربية.

ـــالانبهار باللغات الأجنبية، انعكاسا لما تضخه الفضائيات من برامج وأفلام عالية الصنع.

ـــ عدم قيام وسائل الإعلام بدورها كشريك هام في تنمية اللغة الوطنية، ولجوؤها إلى استخدام اللهجات العامية في تقديم برامجها، بل استعمال الألفاظ المبتذلة والتراكيب المرتجلة والمحرفة، أو الصيغ اللغوية الدخيلة، والعبارات المترجمة ترجمة ناقصة أو غير سليمة[2].

وعلينا أن نعي تماما أنه إذا كانت هناك لغات قديمة كاللغة اليابانية، أو لغات ميتة كاللغة العبرية قد تم إحياؤها كما ذكرنا، فإن اللّغة العربية بمميزاتها الفريدة تحمل في طياتها أكثر من اللّغتين المذكورتين. كما لا يخفى أن ما يوجّه للّغة من اتهامات

---

[1]- زكي نجيب محمود: عربي بين ثقافتين، دار الشروق، ط 2، القاهرة – بيروت 1993، ص179.

[2]- أحمد محمد المعتوق، الحصيلة اللغوية، أهميتها- مصادرها- وسائل تنميتها، ص ص 16 – 17.

بالعجز، ومن صنع عقبات التخلف والتثبيط في وجهها ـــ رغم عوامل القوة الكامنة والظاهرة للغة العربية، ورغم اتساع رقعة الناطقين بها ـــ هو قطع للطريق نحو الرّجوع إلى التراث المكتوب والمنطوق باللّغة العربية، ذلك أنه كلما كان الإنسان أقل استيعابا لمفردات لغة من اللغات كلما ضعفت معرفته بحضارة تلك اللّغة، كما أنه كلما كان أقل معرفة بتلك الحضارة صعب عليه تعلم لغتها فهناك تلازم قوي بين الجانبين، " فاللّغة وخصائصها مظهر من أوضح مظاهر روح الحضارة، فيها خصائصها وبها مميزاتها وطابعها "[1].

خامسا: التراث و تصحيح النظرة إليه و طرق إحيائه عن طريق التربية :

لابد أن نؤكد في بداية هذه النقطة، على أن تعميم الحكم بأن كتب التراث جميعا قد تجاوزها الزمن هو خطأ في الحكم على قضية كبرى من حياتنا الثقافية، وسر الوقوع في هذا الخطأ، هو النظرة الضيقة للتراث وكأنه كتاب واحد يمكن تجاوزه، فليس التراث من القلة أو البساطة التي يتصورها البعض، بل القلة هي في الدراسات التي تناولت التراث، ورغم هذه القلة فإنها لم تسلم من القصور، بل إن جلّها قد أنقصت من قيمة التراث، ولقد أكد"طه عبد الرحمن" في كتابه "تجديد المنهج في تقويم التراث" على هذا الأمر، من أن بعض الباحثين في التراث رغم عدم إجادتهم للغة التراث، وتقليدهم للمناهج الحديثة دون امتلاك ناصيتها، فإنهم نقلوا هذه المناهج إلى غير أصولها، فخرّجوا التراث عن مقتضاها وأفتوا بإلغائه أو

بحصره. ويعلق "طه عبد الرحمن" على هذه الأعمال بقوله: "والملاحظ أن هذه الأعمال، وإن اختلفت في تحليلاتها وتنظيراتها واستنتاجاتها بحسب اختلاف اعتقادات وتقريرات وفرضيات أصحابها، فإنها تكاد تجنح جميعها إلى الأخذ بنظرة انتقائية تجزئ

[1]– مجموعة من المستشرقين: التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، ترجمة عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، (د ط)، القاهرة 1940. (مقدمة المترجم، صفحة ي).

التراث تجزيئا"[1]، لهذا كانت تلك الأعمال قاصرة عن الإحاطة بالقيمة الحقيقية للتراث، والتي يرى "طه عبد الرحمن" أنها تتجلى في منزلته المعنوية المتميزة التي تهبه وجودا ثقافيا وروحيا مستقلا بمبادئه وتصوراته وآلياته التي أنتجته.

وإذا كان الأمر على هذا النحو، فيحسن بنا أن نقرأ تراثنا ونعيد قراءته بعقلانية وروحانية معا، دون الانزلاق في المدح أو القدح، وبالتالي علينا أن ندرك أن تراث السلف ليس تحفة نحنو عليها ونرعاها، بقدر ما هو كتب تدرس وتناقش، من كتب في اللغة، وكتب في العلوم، ودواوين للشعر، وكتب في الفقه، وغيرها من سائر ذخائر الماضي. فلا يصح التقوقع على التراث وإدارة الظهر للواقع المعاش، وترك هذه الأكداس الفكرية التي يزخر بها عصرنا، لننطوي على أنفسنا [2].

إن العودة للتراث مهمة تربوية حضارية إذا تمت في شروط علمية عقلانية، تتجاوز الهوى إلى الاتصال الشعوري بمنجزات السلف، وذلك من أجل ربط حلقات الماضي بالحاضر لأن الوجدان لا يقبل الانفصام. كما أن ما نأخذه من كتب التراث مرهونة قيمته بما "يوحي" للمتعلم بانطباع يساعده على نسج شخصيته وتعميق هويته. وفي هذا الشأن يرى المفكر "زكي نجيب محمود" أن ما يجعل تراثنا يُبعث حيًّا، إذا ما تمثله قراؤه تمثلا تتوحد به قلوبهم بقلوب كاتبيه، فيحس قُرَّاء التراث بما أحس به كاتبوه، وفي تلك اللحظة تتوحد هوية القارئ المعاصر بهوية الكاتب القديم، ثم بتراكم التأثيرات يوما بعد يوم تكون خيوط الانتماء إلى الهوية قد نسجت في النفوس [3].

---

[1]– طه عبد الرحمن: تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، الدار البيضاء – بيروت 1993، ص 21.

[2]– زكي نجيب محمود: عربي بين ثقافتين، ص 131.

[3]– المرجع نفسه، ص 138.

ورغم التقارب المطلوب بين المرء وتراثه، بين حاضره وماضيه، إلاّ أن عليه ألاّ يذوب في الماضي وينسى الحاضر، بل عليه أن يناقش أسلافه، فيقبل منهم ما يحل به مشكلات حاضره ويعينه على تحديد أهدفه، وتقييمه للأشياء من حوله، ويطرح ما كان مناسبا لعصر أسلافه دون عصره .

ومن هنا ينبغي على التربية أن تربط الجيل الجديد بتراثه من خلال انتقاء الحصيلة النوعية الصالحة للبقاء، والمتمثلة في القيم الإنسانية العالية، وعلى رأسها "عقيدة التوحيد" التي تدفع إلى توحد الإنسان المعاصر، يقول "زكي نجيب محمود": "... فنحن وإن كنا نود لأنفسنا أن نشارك دنيانا في علومها الجديدة (...) إلا أننا نود كذلك لو أعطينا دنيانا شيئا مما عندنا، والذي عندنا هو عقيدة "التوحيد" لو سرت بكل قوتها في قلوب البشر، لنتج عنها بالضرورة توحد للإنسان المعاصر، يشفيه من التمزق النفسي الذي جعله يرتفع بالعلم إلى ذروة ويهوى في الوقت نفسه إلى هاوية تعمي بصيرته حتى ليقذف بلدانا بأسرها بقنابله التي صنعها بعلمه"[1].

ولعل أحسن ما في تراثنا، والذي يجدر أن نلقنه أبناءنا، هو روح الجدية والوقار ويقظة الضمير، وهي أخلاقيات يعرفها العربي والغربي عن حضارتنا وتراثنا، نذكر هنا من المستشرقين والمؤرخين الغربيين والفلاسفة والباحثين الذين شهدوا بمكانة الحضارة الإسلامية، لا على سبيل الحصر: "جولد زيهر"، "آدم متز"، "جوزيف شاخت"، "أرنولد توينبي"، "أوزفالد شبنغلر"، "غوستاف لوبون"، "زيغريد هونكه".

لكن هذه القيم لن تصل إلى أبنائنا صافية ما لم تتحسّن لغتهم العربية، وهذا يقع على عاتق المربين، ذلك أن مهمة التربية هي أن تهذب وترهف الحاسة الفطرية للغة، ليميز التلميذ بين الأجمل والأقبح، ولن تتحقق الصلة بين الماضي والحاضر، إلا إذا

[1]- زكي نجيب محمود: عربي بين ثقافتين، ص 129.

تغيرت وجهة النظر إلى طبيعة اللغة، لنبثها في نفوس أبنائنا وبناتنا، وذلك حتى يمتلكوا القدرة على الشعور بحياة ما يقرؤونه مما كتبه الأسلاف متمثلا لهم إنسانا يتحدث إليهم، لا ليتقبلوا ما يقول بل ليحاوروه.

سادسا: نموذجين من الحصيلة النوعية الصالحة للبقاء من تراثنا الحضاري :

سنقف عند اثنين من العوامل الحضارية من تراثنا:

1 ــ البيئة الصالحة للإبداع وأثرها في ظهور " جابر بن حيان " وعلماء آخرين :

إن العائد إلى نصوص "جابر بن حيان" يقرأ عن كثب أن ظهوره في ذلك العصر أهم من اكتشافاته النظرية والعملية، ففي مجال النظر أصبح من المعروف لدى المختصين في تاريخ العلوم ــ على الأقل ــ سبقُه للفلاسفة المحدثين في رده الاستدلال الاستقرائي إلى العادة وحدها، وليس إلى الضرورة العقلية[1]، وفي مجال التطبيق: تجاربه الناجحة الكثيرة في علم الكيمياء، وقد عده كثير من الباحثين بسببها مؤسس علم الكيمياء الحديث.

لكن الأهم من هذا فيما يخص موضوعنا، البيئة الصالحة التي وجد فيها "جابر بن حيان"، والتي ساعدته على أن يبدع كل ما أبدع، فقد ذكر"جابر بن حيان" أن بداياته كانت متواضعة في عهده، مثله مثل أساتذته وزملائه، وأن مصنفات القدماء كأفلاطون وأرسطو وهرمس وغيرهم، كانت تحمل الغث والسمين، كما كان ينقصها التركيز والانسجام. مما يثبت لنا أن التطور الذي أحدثه "جابر بن حيان" في الكيمياء كان وليد ظروف خاصة ومجتمع جديد، تهيأت فيه عناصر ضرورية لأن تبتدئ فيه

[1]– توفيق الطويل، في تراثنا العربي، سلسلة عالم المعرفة، 87، الكويت 1985، ص 49 .

مرحلة جديدة للعلم هذه العناصر هي ما يعرف في عصرنا بالبيئة الإبداعية، والتي نحن في أمس الحاجة إليها اليوم[1].

ونسوق هنا أمثلة لعلماء آخرين عاشوا في نفس تلك البيئة الإبداعية فجرت على أيديهم إبداعات كثيرة جعلتهم يحققون طفرات في تاريخ العلم، لا زالت الإنسانية تستفيد منها وتطورها، من مثل إبداعات: ابن سينا في الفلسفة، والطب، والطب النفسي والكيمياوي، وقصته في علاج مريض الوهم معروفة. والطبيب "ابن جميع" (من أبناء القرن الرابع الهجري، الثاني عشر الميلادي) الذي نبغ في الإنعاش، والذي أورد لنا "ابن أبي أصيبعة" إحدى أخباره عندما أنقذ شخصا عدّ ميتا، يقول: "حدثني بعض المصريين أن ابن جميع كان يوماً جالساً في دكانه عند سوق القناديل بفسطاط مصر، وقد مرت جنازة فلما نظر إليها صاح بأهل الميت، وذكر لهم أن صاحبهم لم يمت، وأنهم إن دفنوه فإنما يدفنونه حياً [...] ثم إن بعضهم قال لبعض هذا الذي يقوله ما يضرنا أننا نمتحنه، فإن كان حقاً فهو الذي نريده، وإن لم يكن حقاً فما يتغير علينا شيء. فاستدعوه إليهم وقالوا: بيّن الذي قلت لنا، فأمرهم بالمصير إلى البيت، وأن ينزعوا عن الميت أكفانه، وقال لهم احملوه إلى الحمام، ثم سكب عليه الماء الحار، وأحمى بدنه ونطله بنطولات، وعطّسه فرأوا فيه أدنى حس، وتحرك حركة خفيفة. فقال أبشروا بعافيته، ثم تمم علاجه إلى أن أفاق وصلح (...) ثم أنه سئل بعد ذلك من أين علمت أن ذلك الميت، وهو محمول وعليه الأكفان، أن فيه روحاً؟ فقال: إني نظرت إلى قدميه فوجدتهما قائمتين، وأقدام الذين قد ماتوا تكون منبسطة، فحدست أنه حي"[2].

---

[1]- فؤاد سيزيكين، مكانة المسلمين والعرب في تاريخ علم الكيمياء: (مقال) بمجلة الثقافة، العدد 95، أكتوبر1986، الجزائر، ص 126.

[2]- ابن أبي أصيبعة موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، نقل وجمع: امرؤ القيس بن الطحان، ج 2، المطبعة الوهبية، ط 1، القاهرة 1882، ص 113.

إن ما قام به " ابن جميع" في عملية الإنعاش هو تصرف صحيح، فبعد أن أحمى بدن مريضه سكب على وجهه ورأسه مزيجاً من الماء وبعض المواد المثيرة والمنعشة لتندفع في المجاري التنفسية العليا لتنبه عملية التنفس، بعد أن جرى تنشيط الدورة الدموية.

أما "أبو القاسم خلف بن عباس" الزهراوي الأندلسي (ت 427 هـ، 1035 م) صاحب دائرة المعارف الطبية الكبيرة، وتقع في ثلاثين جزءاً تسمى: (التصريف لمن عجز عن التأليف)، وينقسم هذا الكتاب إلى قسم طبي وقسم صيدلاني. كما كان"الزهراوي" مخترعا لأدوات الجراحة، التي عرفتها أوروبا من بعده، وأنه أول من استعملها بنجاح في شق القصبة الهوائية Trachiolomie، كما استعمل هذه الأدوات في علاج أمراض أخرى. يقول عنه "عبد الرحمن مرحبا" إن: " كثيرا من الأدوات الطبية المعروضة ترجع إلى الزهراوي الذي يسميه اللاتينيون Abulcasis (أبو القاسم). فقد رفع هذا الطبيب من شأن الجراحة العربية وجعلها فرعا أساسيا من فروع الطب. ولا غرو بعد ذلك إن وصف بأنه أبو الجراحة "[1].

تبين الصورة التالية أدوات طبية عربية، وهي عبارة عن مقصات، وكلاّبات، ومناشير ومشارط، للجراحة تشبه جدا بعض أدوات الجراحة العصرية. عُرضت لأول مرة في مهرجان العالم الإسلامي الذي عقد بلندن بداية ربيع 1976[2]:

[1]- عبد الرحمن مرحبا، المرجع في تاريخ العلوم عند العرب، دار الجيل، ط 1، بيروت 1998، ص ص 290-292.

[2]- لمرجع نفسه، ص 293 .

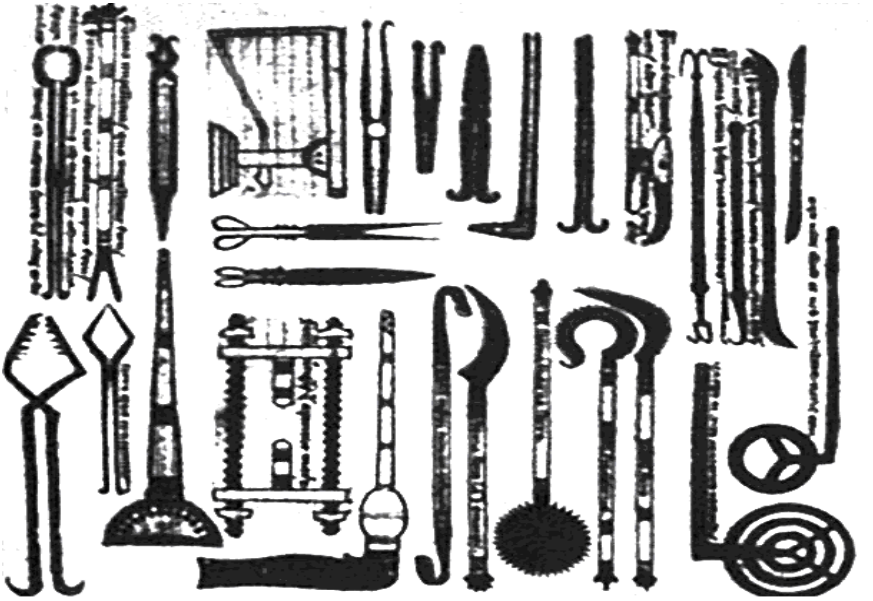

2 ــ جهود الجاحظ العقلانية ودورها في تأسيس اللُحمة الحضارية :

يجد المتأمل في تراثنا العربي والإسلامي أن روح الوحدة قد استوعبت الاختلافات المذهبية، والدينية، والعرقية التي تهدد أمن واستقرار أي مجتمع، إذا لم تتوفر لديه البصيرة النافذة التي ترى أن التعدد ميزة تثري الحياة بدل إثارة الاختلافات .

هذه البصيرة النافذة جعلت "الجاحظ" المفكر المعتزلي العقلاني، يكتب في نبذ العصبية العربية والعصبيات الشّعوبية، التي كادت أن تمزق جسم الأمة الإسلامية في عصره، فكتب عددا من الرسائل خصص كل واحدة منها للانتصار لطائفة من الطوائف، وذلك مثل :"مناقب الترك"، و"فخر السودان على البيضان" و"مفاخرة قحطان"، و" تفضيل عدنان". قصد من وراء هذه الرسائل أن يبين أن الفضل والفضائل هي من نصيب كل جماعة من هذه الجماعات، وما دامت الفضائل في الجميع، فإن

الحقيقة الموضوعية لابد وأن تكون مع التآلف والائتلاف، للاشتراك في الفضائل ولشيوعها بين الأمم والأجناس والجماعات[1].

وهنا نجد أن الجاحظ كان في تلك الأعمال يحمل حسا حضاريا إنسانيا عاليا، ساهم به في رقي الحضارة العربية الإسلامية، التي يصحّ تماما اعتبارها من الحضارات الإنسانية العالمية، التي استوعبت الأعراق، والتيارات، والفلسفات، والمعتقدات المختلفة، فكانت هذه العناصر عوامل قوة وبناء، باستنادها على الوحي والعقل والعلم، فتفوقت الحضارة العربية الإسلامية بذلك، على الحضارات التي سبقتها في الوجود، ولا زال إشعاعها مصدر إلهام، للإنسان حتى يومنا هذا، ونصوص التراث المنتشرة في أكبر متاحف ومكتبات، وجامعات العالم خير دليل على ما نقول.

سابعا: التمسك الإيجابي بالتراث ركيزة من ركائز الهوية الثقافية وسبيل البقاء والوجود

للوعي بالهوية معنى شامل، لعل أهم ما يقوم عليه الحفاظ على التراث، لكن لابد أن نؤكد هنا على أنه مهما وضعت الاتفاقيات الدولية، أو التشريعات الوطنية لحماية التراث المادي وغير المادي[2]. فإن ذلك لن يكوّن ضمانة للمحافظة عليه، ما لم تشعر شرائح المجتمع، خاصة الشابة بأهمية هذا التراث، وأنه جزء من شخصيتها و وجودها، ولن يكون ذلك إلا عن طريق التربية بمعناها الواسع : الأسرة، والمدرسة، النوادي الثقافية، والإعلام الهادف. ليتمكن بذلك الشباب من رؤية تراثه حيا نابضا،

[1]– محمد عمارة: العرب والتحدي، سلسلة عالم المعرفة، 29، الكويت 1980، ص ص 53 – 54 .

[2]– راجع محمد سامح عمرو: اتفاقيات اليونسكو في مجال حماية التراث الثقافي، دراسة قانونية تأصيلية وتحليلية، (مقال) بالمجلة العربية للثقافة، العدد 52، مارس2008، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ص ص 35– 70.

يستلهم منه العبر والدروس، والحكمة، وباختصار على أنه وسيلة من وسائل بقائه، نظرا لما يختزنه من ثراء تشتمل عليه مكوناته .

وبالإضافة إلى النماذج العلمية الحضارية الآنفة الذكر، نضيف أيضا ـــ في نهاية مقالنا هذا ـــ عناصرا لها أهميتها من التراث الشعبي منها :

– الأدب الشعبي، وفنون القول المتواترة مشافهة من جيل إلى جيل، بما تحمله من حكم ومعارف وتصورات .

– ما حسن من العادات والتقاليد، وما تتضمنه من الممارسات التي كرستها الأجيال السابقة عرفا وعادات

متوارثة .

– فنون الموسيقى والغناء وغيرها من الفنون الشعبية، بما تحمله من تعبيرات جمالية .

– الحرف والصناعات الشعبية، بما تحمله من دلالات حضارية (نفسية واجتماعية) [1].

خاتمـــة :

لا بأس في خاتمة هذه الدراسة، أن نؤكد على أهمية تعزيز الارتباط الوجداني، والمعرفي بين الجيل الجديد من المتعلمين، وماضي أمتهم حتى لا يحرموا تاريخهم، ويأتي من يعبث بهويتهم، فلا يجدون ملجأ إذ ذاك إلا التّبعية، فنخسر عقولهم وضمائرهم .

ففهم الفرد، وتمثله لتراث أجداده، الذي يعبر عن أسلوب حياتهم، ونظرتهم إلى الوجود، يكوّن عنصرا من عناصر ثقافته، ويوطد وشائج القربى بينه وبين الجماعة التي

[1]– عبد الحميد حواس، التراث الثقافي غير المادي في الوطن العربي من منظور عربي، (مقال) بالمجلة العربية للثقافة، العدد 52، مارس2008، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ص ص 127– 128.

ينتمي إليها، ويعطيه معنى لممارساته في حياته نفسها، شريطة ألا يدعوه ذلك إلى الانغلاق على الذات والانكفاء فيها، بتمجيد الماضي واجتراره على حساب المستقبل .

وليتمثل هذا الجيل ما يتضمنه قول " أبي العلاء المعري " من دعوة إلى الإبداع والابتكار، دون وجل مما أبدعه السابقون، حين قال:

إني وإن كنت أخـــير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل

وأختم هذه المقالة بهذا القول الصائب ـــ إلى حد كبير ـــ "لزكي نجيب محمود"، الذي يدعونا فيه إلى أن نستوحي من تراثنا الغني، ما يحركنا إلى حفظ كياننا، والإسهام الحضاري في حاضرنا، بقوله: "هناك جماعات من الناس لا تجد لها تاريخا فتصيد لنفسها أسطورة تحرك الناس إلى القوة، ونحن نحمل وراء ظهورنا تاريخا حقيقيا شهده الزمان وشهد له، وهو تاريخ لو تقسمه أهل الكوكب الأرضي جميعا لكفاهم دافعا شريفا نحو هدف شريف، ومع ذلك لم نستطع نحن أصحابه أن نستوحيه سداد العمل لنحقق القوّة التي نعتصم بها من الهوى والهوان"[1].

قائمـــــة المـــراجع:

أولا: المؤلفات:

- ابن أبي أصيبعة موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، نقل وجمع: امرؤ القيس بن الطحان، ج 2، المطبعة الوهبية، ط 1، القاهرة 1882.

- أحمد محمد المعتوق: الحصيلة اللغوية، أهميتها- مصادرها- وسائل تنميتها، سلسلة عالم المعرفة 212، الكويت 1996.

- توفيق الطويل: في تراثنا العربي، سلسلة عالم المعرفة، 87، الكويت 1985، .

[1]- زكي نجيب محمود : عربي بين ثقافتين، ص 22.

– رشاد عبد الله الشامي: إشكالية اليهودية في إسرائيل، سلسلة عالم المعرفة، 224، الكويت 1997.

– زكي نجيب محمود: عربي بين ثقافتين، دار الشروق، ط 2، القاهرة – بيروت 1993.

– طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، ط 2، الدار البيضاء – بيروت 1993.

– سعيد إسماعيل علي: الفكر التربوي العربي الحديث، سلسلة عالم المعرفة، 113، الكويت 1987.

– سعيد التل وآخرون: المرجع في مبادئ التربية، دار الشرق للنشر والتوزيع، ط 1، بيروت 1993.

– عبد الرحمن مرحبا: المرجع في تاريخ العلوم عند العرب، دار الجيل، ط 1، بيروت 1998.

– عبد الله شريط: من واقع الثقافة الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط 2، الجزائر 1981.

– عبد الله عبد الدائم: نحو فلسفة تربوية عربية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 2، بيروت 2000.

– مالك بن نبي: إنتاج المستشرقين، وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت 1966.

– مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة محمد عبد العظيم علي، دار الفكر، ط1، بيروت 1971.

– مجدي عزيز إبراهيم: المنهج التربوي والتحدي، عالم الكتب، ط 2، القاهرة 2002.

– مجموعة من المستشرقين: التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، ترجمة عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1940. (مقدمة المترجم، صفحة ي).

– محمد عمارة: العرب والتحدي، سلسلة عالم المعرفة، 29، الكويت 1980.

– محمد منير مرسي: فلسفة التربية اتجاهاتها ومدارسها، عالم الكتب، (د. ط.)، القاهرة 1992.

– مسعود ضاهر: النهضة العربية والنهضة اليابانية، تشابه المقدمات واختلاف النتائج، سلسلة عالم المعرفة، 252، ديسمبر 1999، الكويت.

– هانس بيترمان: هارالد شومان، فخ العولمة، ترجمة: عدنان عباس علي، سلسلة عالم المعرفة، 238، الكويت 1998.

ثانيا: الدّوريات:

– حنفي بن عيسى: العربية الحديثة والتحدي التقني، (مقال) بمجلة الثقافة، العدد95، سبتمبر– أكتوبر1986، الجزائر.

– عبد الحميد حواس: التراث الثقافي غير المادي في الوطن العربي من منظور عربي، (مقال) بالمجلة العربية للثقافة، العدد 52، مارس2008، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس.

– فؤاد سيزيكين: مكانة المسلمين والعرب في تاريخ علم الكيمياء، (مقال) بمجلة الثقافة، العدد 95، أكتوبر1986، الجزائر.

– محمد سامح عمرو: اتفاقيات اليونسكو في مجال حماية التراث الثقافي، دراسة قانونية تأصيلية وتحليلية، (مقال) بالمجلة العربية للثقافة، العدد 52، مارس2008، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس.

– مولود قاسم نايت بلقاسم: نعيب الإنسانيات والعيب فينا وما للإنسانيات عيب سوانا، (مقال) بمجلة الثقافة، العدد 95، أكتوبر1986، الجزائر.

ثالثا: المعاجم والموسوعات:

– جان فرنسوا دورتيه (إشراف): معجم العلوم الإنسانية، ترجمة: جورج كتورة، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، بيروت 2009.

– كامل المهندس ومجدي وهبه: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، ط 2، بيروت 1984.

– لطفي بركات أحمد: المعجم التربوي في الأصول الفكرية والثقافية للتربية، دار الوطن للنشر والطباعة والإعلام، ط1، الرياض 1984.

– عبد الوهاب الكيالي (وآخرون): موسوعة السياسة، ج 2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 2، بيروت 1985.